الدرس التاسع

اولا: السيرة الذاتية

السيرة الذاتية هي التي يتحدث فيها الكاتب بقلمه عن أحواله الذاتية، فيسجل حوادثه وأخباره، ويسرد أعماله وآثاره، ويذكر أيام طفولته وشبابه وكهولته، وما جرى له فيها من أحداث مختلفة، وقد تسجل فيها الوقائع والأحداث يوما فيوما أو بصورة متقطعة بعد أن تجمع عناصرها من مصادر متعددة، ويعرف قاموس أوكسفورد السيرة الذاتية بأنها:"كتابة الشخص لتاريخه وقصة حياته بقلمه"، وفي كتاب(معجم مصطلحات الأدب) عرفت السيرة الذاتية على أنها: "سرد متواصل يكتبه شخص ما عن حياته الماضية".

وإن كل سيرة ذاتية في حد ذاتها هي تجربة ذاتية لشخص من الأشخاص فإذا بلغت هذه التجربة دور النضج وأصبحت في نفس كاتبها نوعا من الرغبة للإفضاء بها للناس دون أي حرج، فإنه لابد أن يكتب سيرته الذاتية. وإن الإنسان الذي يعجز عن أن يرى مرتبته في الحياة بكل الوضوح وليست له نظرة عميقة ونظرة خاصة في تجربة حياته لايناسب له أن يكتب سيرته. **ويمكن كتابة السيرة الذاتية من قبل الشخص المعني بها أو يجوز للمولف الاعتماد على كاتب محترف. يمكن أن تكون السيرة على شكل كتاب أو تسجيل صوتي وأفلام وثائقية .**

أما عن العوامل التي تدفع الأشخاص إلى كتابة سيرهم الذاتية فهي كثيرة وعديدة، وتختلف هذه العوامل من شخص إلى آخر، ومنها:

1. محاولة بعض الأشخاص اللجوء إلى كتابة سيرهم الذاتية من اجل تحديد مواقفهم من بعض الأحداث التي كانوا جزءا منها، أو ردا غير مباشر على آراء جدالية تعرض لها كاتب السيرة في حياته أو موقفا تجاه قضايا تخص الوجود أو المجتمع أو السياسة
2. تفسح مسالة تأليف السيرة الذاتية الفضاء الأوسع لقطع موافقة تجاه حياته والمناخ السياسي والاجتماعي والثقافي الذي يعيش فيه،

وهكذا تكتسب السيرة الذاتية قيمتها من وعي الكاتب نفسه بأهميتها، فالحياة التي ترويها والتي عاشها صاحبها يجب أن تكون جديرة بأن تروى، فما من حياة شخصية تروي عاشها كاتبها عبثا وعلى هذا النحو يعبر الإنسان عن معنى وجوده

هناك فرق البين السيرة الذاتية والمذكرات، لأن المذكرة تهتم بالتركيز على أحداث معينة، أو أحد التجارب الفردية من خلال التركيز على وجهة نظر الكاتب ، ولكن السيرة الذاتية تعرض الأحداث التي تمر في حياة الشخص من خلال التسلسل الزمني لها، بدون التركيز على أحد الجوانب فتكون مثل سرد عادي للأحداث. ويمكن تحديد بعض النقاط الاختلاف بينهما وفق الجدول الآتي:

السيرة الذاتية	المذكرات
تكون أكثر اشتمالاً وعمومية	التركيز على المشاعر الشخصية بشكل خاص
تغطي الحياة الكاملة للموضوع	تغطي قسما معينا أو زمنا أو مرحلة معينة حياته
تكتب من قبل صاحبها أو غيره	تكتب من قبل صاحبها
تلتزم بالتسلسل الزمني للأحداث	كتابها اقل التزما في التسلسل الزمني للاحداث
تحتوي على تفاصيل معقدة تخص حياته	هي أكثر مركزية في الطبيعة والتي تركز على الأحداث المحددة التي حدثت للمؤلف.

علاقة السيرة الذاتية بالكتابة التاريخية:

إن صلة السيرة الذاتية بالتاريخ صلة قوية، ذلك لأنهما يشتركان في تسجيل الوقائع والأحداث و المواقف في تصوير مختلف البيئات والمآثر، والكشف عن الصور المادية والنفسية وإذا كانت السيرة الذاتية تنبع من صلب الأدب بخلاف التاريخ بالطبع العلمي فهذا لايعني أن الحس التاريخي منعدم في كتابة التاريخ الخاص الفردي، بل إنه على العكس حاضر بأبعاده الثلاثة المتمثلة في الماضي، والحاضر، والمستقبل، والظاهر لأول وهلة أن الترجمة الشخصية تتخذ موقعا وسطا بين الأدب والتاريخ، وإذا ننظر أكثر في طبيعة هذا الجنس الأدبي نصل إلى تعبير دقيق عميق من حيث حمولته الدلالية، وهو أن هذا اللون من التعبير تتجاذبه قوتان: سلطة الأدب وقوة التاريخ، لأن الكاتب يصوغ تاريخه الخاص صياغة أدبية، وبسبب واقع التجاوب بين الأدب والتاريخ تتميز السيرة الذاتية عن باقي جسد التاريخ العام مع أن الأصل في التاريخ الإنساني هو مجموع التواريخ الخاصة، سواء الفردية منها أم الجماعية، وأن الترجمة الذاتية لاتسقط من فضائها، وإن كان الزمن في الترجمة الذاتية الإسلامية الحديثة يرتبط بالعودة إلى مرحلة أو عدة مراحل وهي في ذات الوقت عودة إلى فضاءات وتاريخ يلتقي فيه ويتكامل التاريخ الفردي والجماعي وأنها عودة تجد في الكتابة حاضرها وفي الذاكرة ماضيها، ولاريب أن المسافة بين

الكتابة والذاكرة أو بين الحاضر و الماضي تاريخية وسردية في آن واحد. وما من شك في أن للحس التاريخي دورا كبيرا وتأثيرا مباشرا في إدراج نص السيرة الذاتية وعرضها، وفي تحديد البناء العام لكل تاريخ فردي.

إن السيرة الشخصية أكثر نبضا من التاريخ بالحياة والتجارب الفردية بحكم محورية الذات الفردية في هذا اللون من التعبير من جهة وثانوية الأحداث من جهة ثانية ومن السهل أن نتنبه إلى كون التاريخ أحد وجوه فتنة هذا الجنس الأدبي، إن التاريخ يجري وراء الحقيقة باحثا وممحصا ثم مبددا لأيّ غموض في عديد جوانب الحياة الإنسانية، فالسيرة الذاتية تقتفي أثر الحياة في ذات الإنسان وكانت ولاتزال أكثر احتفالا بالأدب الذاتي من كل ألوان التاريخ حتى أن التاريخ يعبر عن مدى غنى الحياة الداخلية للإنسان وأن السيرة الشخصية هي ملتقى الحق الأدبي والحق التاريخي.

وهناك عدة أمور تبعد أن السيرة الذاتية من الأدب وتقربها من كتب التاريخ وهي كما يلي:

1. **الالتزام في كتابة السيرة الذاتية بالصدق التاريخي ليس بالصدق الفني، وأن هذا الالتزام يجعل الكاتب أن يقف عند الحقائق، يعرضها ويرتبها ترتيبا خاصا فيضعف عنصر الخيال الذي كان يمكن أن يجعل من السيرة قصة ممتعة وجذابة.**
2. **البعد عن سيطرة العاطفة على ما يصدره من أحكام فكاتب السيرة الذاتية له ضروري ألا يسخر الأحكام والوقائع والأحداث لعاطفته، فإن ازدياد العاطفة ينحرف بالسيرة عن وضعها الطبعي.**

ثانيا: الأوراق العائلية (التاريخ المحلي)

تحتل الأوراق العائلية، إجمالًا، أهمية كبيرة في كتابة التاريخ الوطني لاي بلد. اذ بالإمكان كتابة التاريخ بشكل أكثر دقة بالاعتماد عل ما تتركه الطبقات السفلى من المجتمع، بعيدًا عن مقولات فلسفية كبرى وإجابات محسومة على نحو استباقي، وصولًا لرواية تبني لبناتها فوق بعضها بعضًا، وتنجح في اختبار التجديد التاريخي، متحديةً ماكينة الاستنساخ وتفريخ ما أنُتج حتمًا، بغية الاستئناف على الماضي والدفع نحو نقد الراهن واعتبار المستقبل مسؤوليةً ووعدًا. والاعتماد على الأوراق العائلية يعد بكتابة تاريخ بعيد كل البعد عن التاريخ الرسمي، وهذا الكتابة التاريخية هي نوع من الجهر بهوية من هم تحت في ظلّ تعالي التاريخ النخبوي التقليدي عليهم، وكرد على المركزية البحثية في التاريخ السياسي. وبعد أن فرضت الأنظمة السياسية احتكارها على التاريخ وعملية التذكر والنسيان إجمالًا، بل واعتبار تاريخها معياريا يمكننا من خلاله محاكمة أي حدث تاريخي، جاء التاريخ الاجتماعي ليقاوم محاولات تجميد التاريخ، وحوله إلى فعل اجتماعي بامتياز، لم يكن ليتشكل لولا التفاعلات الاجتماعية التي يصوّرها كثيرون وكأنها ذات صوت خافت في الخلفية، وليس في المقدمة.

على العموم، الأوراق العائلية والأوراق الشخصية تعني كل ما يخص العائلة او الفرد من معلومات، ابتداء من شهادة الميلاد ومرورا برخص المهن ودفاتر المصروفات وإيصالات التسليم والقبض والدفع والنقل والتحميل والتنزيل وانتهاء بسندات التمليك والملكية العقارية. وهذه كلها وثائق مهمة لدراسة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي لأي منطقة وفي فترات زمنية محددة، وتكمن أهمية هذه الوثائق كونها غير محفوظة في مراكز الوثائق أو في الجامعات الأمر الذي يعطي أهمية اكبر حسبما تتضمنه من معلومات فريدة قد لا نجدها في الوثائق المحفوظة في المؤسسات العلمية والبحثية ومراكز الوثائق والأرشيف وهي ذات صدقية عالية جدا .

والأوراق العائلية، التي لا تزال تعتبر أرضا بكرا بالإمكان تعبئتها ومواجهة أرشيف المستعمِر عبرها، خاصةً أن المتلقّي هنا لا يحتاج وسيطًا رسميًا لنقل التاريخ، بل تتحوّل النصوص المنسية إلى قصص قائمة بذاتها دون إملاءات سلطة الكلام أو ادعاءات البطولة الخارقة والهزيمة البائسة، ويتحوّل كاتبها إلى مصدر حيّ للمعرفة التاريخية، دون أن يعني ذلك تنحية دور الباحث جانبًا، إذ يتجلّى دوره الأساسي هنا في فرض خياره بإعادة إنتاج النص لحظة استخدامه ونسج قصة من حوله، وإجابته على سؤال الاتساق مع ذاته ومجتمعه قبل سؤاله عن المؤسسة التي

ينتمي لها، ثم فحص صدقية النص خاصةً عند وجود مسافة صفرية بين زمن كتابته وزمن وقوع الحدث، مع ضرورة التأكيد كذلك أنّنا كثيرًا ما نخاف من دفق حكاياتنا بالرومانسية، بل ونترفّع عنها بذريعة الموضوعية، على الرغم من أن هذه العاطفة كثيرًا ما تُبقي بعض القصص التاريخية حاضرةً بعد فوات الأوان، دون أن ندعو بذلك إلى قطع الشعرة بين الرومانسية المُحقة ونظيرتها المبنية اعتباطًا.

أهمية دراسة الوثائق العائلية:

قد لا يدرك البعض الأهمية الحقيقة لدراسة هذه الوثائق، والصحيح أن موضوع الوثيقة نفسها قد لا يكون ذا أهمية كبيرة من الناحية الرسمية كإثبات الملكية أو الحقوق وما شابه ذلك، ولكنها من الناحية التاريخية فهي تمثل مصدراً تاريخياً موثوق لكثير من النواحي الغامضة من الحياة العامة في التاريخ. ويمكننا هنا بيان جوانب منها:

1. الحياة السياسية.
2. الحياة الاجتماعية والاقتصادية ونشاط السكان.
3. الحياة الفكرية والدينية.
4. أعلام القضاة والفقهاء وأئمة المساجد.
5. وفيات الأعلام والأعيان.
6. اللهجات المحلية والمراحل التي مرت بها.
7. العملات النقدية المتداولة.
8. تحقيق الأنساب ومعرفة تسلسل الأجداد.
9. توثيق المصاهرات ومعرفة الأمهات.
10. دراسة الكتابة والمراحل التي مرت بها.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا، لما لا تحظى الأوراق العائلية أو الشخصية باهتمام المؤرخين في بلداننا علما من أنها تجد متنفسا لها في الدول الأخرى. والجواب على هذا السؤال يمكن تحديده بالأمور التالية:

1. قصر تجربتنا البحثية والتاريخية مقارنة بالأمم التي سبقتنا في هذا المجال.

2. صعوبة الوصول إلى الوثائق الأهلية مقارنة بالوثائق الرسمية أو الأجنبية، بسبب ما يتوافر للأخيرة من وسائل الحفظ والفهرسة في حين لا تتوافر للوثائق الأهلية الخاصة معلومات كافية عن أماكنها ومحتوياتها.
3. الاعتقاد السائد بين كثير من الباحثين أن حياة الناس العاديين لم تكن تحظى بالتدوين والتوثيق، فضلا عن عدم الاحتفاظ بما قد يتم تدوينه.
4. صعوبة الاطلاع على الوثائق الخاصة إن وجدت بسبب خصوصيتها في نظر أصحابها والاعتقاد بأنها مما لا يجوز أن يطلع عليه الآخرون.